

التضاد: ميدان النمو؛ كيف ولماذا يشكل التضاد مساراً للتطور؟

التضاد: ميدان النمو والتطور عبر مراحل الحياة الدنيا

إنّ التناقضات والمشكلات جزءٌ لا ينفصل عن مسار نمونا وتجاربنا. قد نتمنى أحياناً لو أنّ حياتنا خلت من المتاعب والتنافر، لكنّ الحقيقة هي أنّ التضاد هو ساحة النمو ذاتها، والعنصر الجوهرى في بنية حياتنا. هذه التناقضات، وإن بدت في ظاهرها ثقيلةً عسيرة، إنّما هي أدوات فعّالة لتكاملنا، كما تعمل كمحرّكات تدفعنا نحو الارتقاء والازدهار.

تخيّل أن حياتك تسير على وتيرةٍ واحدة بلا توتّر ولا اختلاف في وجهات النظر؛ كل شيء يجري وفق رتبة مألوفة، لا جدال، لا نقاش، ولا حتى شكّ أو اعتراض. في مثل هذا الجو الرتيب، ستغرق في بحرٍ من السكون والتكرار، فتمضي الأيام متشابهةً، ولا باعث لديك لكسر هذه الدائرة المملة. فأى متّسع يبقى لديك حينها للتجربة والتعلّم والنمو؟

إنّ الملل والجمود ثمرة غياب التضاد والتحدّي. فعندما يمرّ كل شيء بسلاسةٍ جامدة بلا مقاومة، تضيع من الإنسان فرصة اكتشاف قواه الكامنة، ويُحرم من الشدّة التي تصقله، ومن الحركة التي تقوده إلى الأمام، فيظلّ أسير التكرار والخمول. ولتوضيح هذا المعنى بجلاء، خذ الرياضة مثلاً ملموساً: حين ندخل نادي التدريب، نضع عضلاتنا أمام مواجهةٍ مع الأثقال والتمارين الشاقّة. هذا الضغط والاحتكاك الناشئ من تضاد العضلة مع الثقل هو بالذات ما يمنحها قوّة ويزيد من حجمها. فلو لم تتعرّض العضلات لضغطٍ يتجاوز المعتاد، ما ازداد نموّها ولا نالت صلابةً أكبر. إنه مبدأ بسيط، كثيرًا ما نغفل عنه: لا نموّ بلا تضاد. فالتضاد يعمل كالمرآة التي تعكس ضعفنا وقوّتنا معًا، وتدلّنا على الطريق نحو الأفضل. من هنا سنرى أنّ فقدان التضاد يعادل فقدان المحرّك الأساس للنمو، وأنّ الإقبال عليه بوعيٍ ورضا يحوّل كل تناقضٍ إلى فرصةٍ للارتقاء والتسامي.

لماذا نحتاج إلى التضاد في مسار نمونا؟

إن النمو لا يتحقّق إلا في مواجهة التحديات والتضادّات. هنا نستطيع أن نوّكّد أنّ التضاد هو ميدان نمونا على الصعيدين الفردي والاجتماعي معًا. فنحن - شأننا شأن عضلة لا تكتسب قوّةً إلا عبر الضغط والتمرين - بحاجةٍ دائمةٍ إلى محرّكٍ خارجي يدفعنا إلى النمو في جميع جوانب الحياة. والتضادّات

والتحدّيات هي تلك المحقّرات التي تخرجنا من دائرة المألوف والاعتیاد، وتمنحنا فرصة التدرّب على قدراتٍ جديدة واكتساب مهاراتٍ لم تكن في الحسبان.

ثم إنّ التضاد يشكّل ساحةً عمليّةً لإخراج طاقاتنا الكامنة إلى حيّز الفعل. فصفاً مثل الصبر، والمحبة، والعفو، واللين، تبقى غالباً دفينّة في أعماقنا ما لم تُختبر في مواجهة تناقض أو صراع. وحين نواجه عقبةً أو اختلافاً، نُجبر على اختيار ردّ فعلٍ محدّد، ومن خلال هذا الاختيار تتحوّل قابليّاتنا الخفيّة إلى خصالٍ راسخةٍ وملموسة. إنّ التضاد هو ميدان نموّنا ورصيدنا الحقيقي؛ فبدونه يتوقف المسير ويخمد التقدّم. ففي بيئةٍ خالية من التضاد، يفتر شوق التعلّم، وتبهت الرغبة في التغيير، ولا يجد الإنسان باعثاً ليبتكر أو يتجاوز ذاته. أمّا التضاد، فإنّه يكسر القيود، ويفتح أمامنا أبواب إمكانيّاتٍ جديدة، ويكشف لنا عن طاقاتٍ لم نكن ندرك وجودها فينا.

وأخيراً، لا بدّ من الإشارة إلى أنّ التضاد أداةٌ كبرى لـ معرفة النفس وبنائها. فكل تضادّ هو مرآةٌ تعكس لنا حقيقتنا، فنلمس عندها مواضع ضعفنا وقوّتنا، ونحدّد أيّ الخصال نحتاج إلى ترسيخها، وأيّ العادات يجدر بنا إصلاحها. وهكذا يمنحنا التضاد فرصةً للمعرفة الحقّة بالذات، ومن ثمّ للشروع في مسيرة التهذيب والتكميل.

آلية التضاد في مسار اكتساب ملكات إنسانية

لكي نشرح آلية التضاد، لا بدّ من توضيح معنى "اكتساب" بإيجاز. إن اكتساب هو «ما يحرزه الإنسان»، غير أنّه لا يقتصر على الممتلكات المادية، بل الأهمّ منه ما يتعلّق بالصفات الأخلاقية والخصال الروحية التي تُرسّخها في نفوسنا على مدى الحياة، من خلال اختياراتنا وتكرار سلوكياتنا. هذه هي الثروات الحقيقية والدائمة لشخصيتنا، والتي لا تُنال إلا عبر الكسب.

لكن كيف تُفضي التضادّات إلى اكتساب هذه الثروات والملكات في كياننا؟ إنّها مواقف تُجبرنا على اختيار واتخاذ ردّ فعل. فكلما واجهنا تحدّيًا أو تضادًا، وقفنا بين خيارين: الصبر أو الجزع، الغضب أو العفو. وإذا آثرنا - مثلاً - العفو بدلاً من الخصام، وكرّرنا هذا السلوك، فإنّه مع الزمن يتحوّل إلى خلقٍ راسخٍ يندمج في بنيتنا النفسية. وهذا ما نُطلق عليه اسم اكتساب الثروة الداخلية. ومن هنا ندرك أنّ التضاد هو ميدان التدريب الذي تُزهر فيه صفاتنا وتتجدّر.

فبدون التضاد والتحدّي، لا تُستشعر الحاجة إلى النمو وإلى تفعيل الكثير من الخصائص الكامنة. على سبيل المثال، لا يحتاج الإنسان في ظروف مثالية إلى صبر أو شجاعة أو تسامح، ولكن مواجهة تناقضات

تضعه أمام خياراتٍ محورية، ومع تكرار الاختيار الصحيح، يضاف رصيْدٌ إلى رصيْد النفس. إن كل مواجهةٍ، إذا أُديرت بالشكل الصحيح، يمكن أن تكون فرصةً ثمينةً لبناء صفةٍ، أي لإضافة رصيْدٍ حقيقي إلى ثروتنا الشخصية. بعبارة أخرى، التضاد هو ساحة تحويل المعرفة النظرية، عبر التجربة والتكرار، إلى ثروةٍ داخلية ونموٍ أخلاقي. ويجب التأكيد أنّ أسلوب تعاملنا مع التضاد هو الذي يصنع منه فرصةً أو تهديدًا. فإن واجهناه ببُلب، أورثنا كنوزًا من الصفات، كالمحبّة، والعفو، والصبر، وستر العيوب. وكلما اشتدّ التضاد وحسّن تدبيره، ازدادت ثرواتنا الوجودية واقتربنا أكثر من مكارم الإنسانية.

فإنّ التضاد ليس تهديدًا للبشر، بل هو سرّ التحرّر والنموّ وخلق أسمى الثروات الإنسانية. وإن كانت الطبيعة البدائية الحيوانية تدفع الإنسان إلى الدفاع أو فرار من التضاد، فإنّ السلوك الإنساني والإيماني يقتضي أن نراه سلّمًا للرفقي والتزكية. فكل مشكلة، وكل مشقّة، بل حتى سلوك الآخرين المزعج أو عداوتهم الصريحة، يمكن أن يكون ميدانًا لبناء أعظم ثرواتنا الداخلية، شرط أن نعبره ببصيرةٍ وعملٍ صالح.

بل أحيانًا يكون التضاد بين الرغبات، أو الشكوك، أو حتى الإخفاقات، سببًا في إعادة النظر في الطريق، واكتشاف طاقاتٍ جديدة، والانطلاق نحو آفاقٍ أرحب. فكثير من النجاحات العظمى لم تولد إلا من رحم التردّات والتناقضات الداخلية. والحقيقة أنّ التضاد يزرع فينا بذور النموّ والحركة. وإن كنا نخاف منه أو نعدّه علامة اضطراب، فإنّ النظرة العميقة تكشف أنّ كل ما نسّميه تقدّمًا يرتكز على تضاد: تضاد بين ما نحن عليه وما نصبو أن نكونه.

أليست المعرفة نفسها ثمرة تضاد مع الجهل؟ أليس الاستقلال نتيجة تضاد مع التبعية؟ بل حتى الإزهار الداخلي لا يحدث إلا حين يدفعا التضاد والتردّد إلى إعادة النظر والمراجعة.